تأثير النقد السوسيولوجي للنص الروائي الجزائري في القارئ.

طالبة دكتوراه : حفيظة بن قانة
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة سطيف- (الجزائر)

ملخـــص:

تشير معايشة راهن طلبة قسمنا مؤخرا إلى القول بأن معظمهم يعاني توترا في طريقة التحليل وصراعا في تكييف طموحه وفوضى في إثارة التساؤلات؛ حيث غربته تبعيته لوسائل الاعلام عن مباشرة واقعه، وحدّ اتكاله على أجهزة الكمبيوتر من قدرته الاستعابية والانتاجية.

ولعلّ المتتبع لمسار هذه الوضعية يلاحظ مرجعها إلى مراحل تعليمه السابقة، خاصة منها مستوى التعليم الثانوي إذ يصبح الطالب في سن تؤهله لصناعة ذاته ومن ثم واقعه.

هذه الأسباب وغيرها، تستدعي التأمل العميق في النصوص الأدبية المُدرجة في مقررات التعليم الثانوي، خاصة منها النص الروائي الجزائري بوصفه المصنع الذي يحوي أهم الوسائل الأساسية لتكوين قدرة الطالب التربوية الفكرية والذوقية والتثقيفية التي تسهم في الأخذ بيده ليدخل معترك تشكيل واقعه الاجتماعي والأدبي من بابه الواسع.

وعليه، غدا من الضرورة تسليط الضوء على استراتيجية اختيار النصوص الروائية الجزائرية وطرائق تلقيها بهدف بناء فرد ذي حس مسؤول، فهذه النصوص يجب أن تمثل واقعه وتؤسس لمقوماته الحضارية وتستجيب لتطلعاته المتجددة، وتساعده في تحقيق التوازن بين تنظيم فكره وتنمية خياله.

بناء على هذا تتناول هذه المقالة مدى حضور النص الروائي الجزائري وقراءاته في إعداد قارئ/طالب فعلي منتج؟

Abstract:

This Rubbing shoulders with students recently indicates that the majority of them suffer from nervousness in the way of analysis, a conflict in adapting their aspirations and a chaos when raising questions. They were diverted from following their reality because of their dependence on mass media and to compute which has limited their capacity of apprehension and productivity.

The one who follows this situation may notice that its cause is due to the precedent steps of education, especially the high school level where the student is at age that allows him to build himself and then his reality.

These causes and others necessitate a deep reflection in literary contexts introduced in high school education, especially the Algerian novelist text being considered as a plant which contains the most important fundamental means to form the student's educational, intellectual, gustatory, and instructive capacity which help him create his own social and literang world asit snovld be Thus, it is important to shed light, in the future, on the strategy of choosing Algerian novelist texts and the ways of their reception so as to build a person with a sense of responsibility. These texts should represent the real world he lives in, establish the basics of civilization and respond to his new aspirations in addition to help him achieve balance between organizing his thinking and developing his imagination.

On this basis, I thought that my interposition would cope with the presence of the Algerian novelist text and its analysis in making a real productive reader/student.

1- فعاليات تلقي النص الروائي الجزائري :

تعرض المجتمع الجزائري لظروف قاسية على جميع المستويات الأمر الذي استلزم من الكثير مؤخرا المطالبة بتغييرها أو استبدالها، وغدا هذا الموضوع مطروحا للمناقشة في شتى وسائل الاعلام، وحتى لا تتسم مثل هذه الإشكالية الحساسة بعادية الخبر وجب تحويلها للنص الأدبي الروائي، حيث يتسع عمق التحليل وتزداد فرص مشاركة المتلقي في المعالجة .

على هذا الأساس وقع اختيارنا على النص الروائي الجزائري الذي غدا تلقيه ضرورة في أهم الأطوار التعليمية التي تسهم في تشكيل شخصية الفرد الجزائري وتدفع به لمواجهة تحديات الماضي والحاضر والمستقبل، خاصة وأن طبيعته تحوي مختلف الأشكال الإبداعية الأخرى.

فمن شأن هذا القالب الفكري والأدبي أن يزيد في مهارات الفهم وتعدد التحليل، نتيجة لتعدد أبعاده، حيث أهله بعده الاجتماعي لأن يكون أقرب لتصوير الواقع بمستوياته التكوينية، ويساهم بواسطة بعده المعرفي في تشكيل رؤى القارئ الفكرية، أما من خلال بعده التواصلي فيستطيع أن يفعّل مساحة الحوار الجدلي، في حين يتمكن عبر بعده اللغوي أن يكون نصا له عناصر أسلوبية تستقطب كل ذلك لعالمه التخييلي أو بعده الأدبي حتى يحسن رسم شبكته العلائقية ويشيع القراءات اللامنتهية .

وحتى لما كان النص الروائي الأدبي الجزائري منفتحا « على سائر تشكلات الفعل الإبداعي في شتى صوره التراثية منها والمعاصرة، المحلية منها والعالمية، والقادر على التفاعل معها عبر أشكال متعددة من التعالق النصي، تعكس اختلافا في المرجع وتنوعا في الرؤية من كاتب لآخر »(1)، فهذه الرؤية تبقى رهينة القراءة الفاعلة التي تحررها وتهب لها الشرعية، ومن ثم تشاركها في دعم إنتاجية القارئ، خاصة وأنه مؤخرا أصبحت للقراءة مداخل كثيرة تقبل بها على زوايا النص المتعددة، ولعل أهمها: البنوية، الأسلوبية، السميائية...

2- جدوى انفتاح قارئ النص الروائي الجزائري على سوسيولوجيا النص :

مُرادنا في بناء القارئ/الفرد يذهب بنا إلى التركيز على القراءة التي تجمع إلى جانب النص الروائي المجتمع، فكان التحليل السوسيولوجي هو الأقرب لفضاء الرواية، حيث ظهرت سوسيولوجيا النص لمؤسسها ***بيار زيما Pierre V.Zima*** - وهي آخر ما استجد على ساحة النقد السوسيولوجي- حتى تسعى في توسيع دائرة الفهم ليكون هدفه الربط الجدلي والحي بين الاجتماعي والأدبي .

وحتى المطلع على الظروف الأولى التي ساهمت في دخول الشكل الروائي إلى الأدب الجزائري، يرى أن « الاستقلال والظروف السياسية والاجتماعية .. كان .. عهد استقرار وهدوء وتأمل، ومن ثم عهد رجوع إلى النفس وإلى الماضي الثوري القريب يدرسه الكتاب ويستخلصون منه الدروس والعبر. وهو ما سمح لأدبائنا ... بتجريب كتابة الرواية في نجاح غير قليل منذ المحاولات الأولى »(2).

بالتالي، فضاء الرواية الواسع الوصفي والتصويري والتحليلي والتخييلي؛ تطلب وعيا في رؤية الكاتب وحركية في الأحداث السياسية والثقافية والاقتصادية وحيوية في الحياة الاجتماعية الجزائرية .

فكان « مرور حوالي عقد من الزمان في عهد الاستقلال قبل ظهور الرواية العربية الجزائرية الأولى أمر طبيعي اقتضته ضرورة التمرس بهذا الفن المعقد، ودعت إليه الحاجة إلى دراسة الأوضاع الاجتماعية الناجمة عن الثورة الجزائرية والمترتبة على استرجاع الشعب الجزائري لسيادته الوطنية » (3) .

فالنص الروائي له مساحة رؤيوية شمولية تمكنه من دراسة الاجتماعي والشخصي والنفسي والتاريخي ... وكل هذا التميز التشابكي يسمح للأدبية بالتعالق الجدلي والتكامل مع هذا الفضاء الرؤيوي التحليلي والفكري للرواية الجزائرية.

هذه الآفاق غير المحدودة التي يتوفر عليها النص الروائي تنعكس بدورها إيجابا على وعي قارئها وآفاقه، فقراءة النص الروائي عند عبد الحميد بن هدوقة مثلا تكشف له أهمية

التأسيس كأرضية صلبة لتشكيل الخصوصية الحضارية والهوية التاريخية فهو القائل« ينبغي أن نحافظ على الأصالة ونحترمها، وهي مميز مهم لإبداعاتنا في التقنيات المستعملة »(4) .

وستضيف روايات **الطاهر وطار** ضرورة استثمار التراث في تكريس الأصالة لكن دون الركون إلى سكونية التقليد، يقول **الطاهر وطار**: « وقد خرجت من تجربتي في الكتابة بخلاصة وهي أن الالتزام بشكل معين بدعوى رفض الأشكال القديمة، هو الوقوع في محافظة جديدة. الكتابة بداية جديدة. ميلاد، كل عمل له عالمه وتفاعله وعناصره، المسألة ليست ميكانيكية » (5) .

وسيتعلم من نصوص **واسيني الأعرج** الروائية فعالية الانفتاح الحي والإيجابي على الآخر قصد تنقيح الذات من خلال علاقة تبادل تأثرية بين الأصالة والمثاقفة؛ حيث يرى التأصيل يتأسس على « البحث عن الأنا من خلال تاريخ هذا الأنا ... والبحث عن الأنا من خلال الآخر... من أجل خلق ذات متحررة، لها علاقاتها بتاريخها وحضارتها، مما يعطيها تمايزاتها، ولها علاقاتها مع الآخر المتقدم/ المتنور، مما يعطيها مكانا داخل العصر الذي تعيشه استهلاكا، وتحاول أن تعيشه كممارسة فكرية، حضارية » (6) .

كذلك يتعمق وعي القارئ ويهذّب خياله من خلال فك مستويات المتن الروائي المشفرة حيث تعدد الرؤى السردية، وثراء روافد اللغة، والتناص مع القرآن والشعر والمسرح... والتلاقح مع الموسيقى والأحداث والحوار والشخصيات والمكان والزمان... إذ يعد « معرفة أدوات الكتابة الروائية .. في حد ذاته مفتاحا هاما من مفاتيح القراءة المنتجة»(7) التي نمثلها بالنقد السوسيولوجي الجزائري، الذي سعى إلى تجاوز المستهلك من آلياته التحليلية وخلق أخرى جديدة تستوعب تداخل الداخل الأدبي الروائي وتنفتح على الخارج الاجتماعي بمستوياته .

هذه القراءة لم تعد تعني بأي شكل من الأشكال « هنا المعنى الشائع لها الوارد في مناهج التعليم والكتب المدرسية؛ أي إصدار الأصوات طبقا لمخارج الحروف، ولكن القراءة هنا تعني الفهم، والنص هو موضوع الفهم. إذن قراءة النص تعادل نظرية المعرفة في الفلسفة التقليدية، تحديدا للعلاقة بين الذات والموضوع، فالقراءة هي الذات والنص هو الموضوع » (8)

ومثل هذه القراءة تسهم في إشاعة الحيوية والفعالية وسط هذا المنظور التحليلي، الذي يدعم فعالية الفهم لديه باحتواء المجتمع إلى جانب النص والقارئ، ونجد **بيار زيما Pierre V.Zima** يحدد طبيعة الفهم الذي يرمي إليه، إذ يرى أن الفهم الذي يقصده (أي **بيار زيما Pierre V.Zima**) « هو فهم التركيب (النصي) كأفعال اجتماعية ومحاولة ربطها بالمستوى الدلالي الذي يتميز بازدواجية الاشتراك في العالم التخييلي وفي العالم الاجتماعي » (9) .

ودراسات **بيار زيما Pierre V.Zima** السوسيو- نصية في بحثها عن حقيقة النص الأدبي باعتباره تكوينا تركيبيا دلاليا تواصليا، اتخذت من اللغة منطقة للتحليل النقدي، إذ هي تمثل مشتركا استعماليا بين داخل النص التركيبي فهي تقنية الكتابة النصية إضافة إلى كونها وسيلة التعبير التواصلي الحياتي حيث الدلالة الخام للنص .

وهذا النوع من التحليل النقدي، من شأنه أن يخلق ألفة بين النص وقارئه تزيد في فرص نجاح عملية التواصل وتسهل التعايش مع الأفكار والصور التي يقدمها النص وتقلص من شساعة الفجوة والنفور التي قد تسببها لغة مفروضة محملة بالغرابة والتعقيد .

والسبب في ذلك كون اللغة ممارسة تواصلية اجتماعية دائمة مشبعة بأفكار ومعارف وإيديولوجيا كذلك هي تجسد جمالي متجذر في الوعي النصي، ومن ثم « ينبغي فهم التراكيب الجميلة في النص الأدبي من وجهتين متكاملتين: وجهة الأصل، أي الارتباط باستعمال الدارج في المجتمع، ووجهة التوظيف أي الارتباط بالاستعمال الجديد في العالم التخييلي »(10)

ودعوة **بيار زيما Pierre V.Zima** للتركيز على عرض المجتمع في وضعية سوسيو- لسانية، من شأنه أن يقدم للدراسة التحليلية إمكانية رصد العلاقات التي تحكم النص بالبنية المجتمعية التي شهدت تكوينه على شاكلة ترفض القولبة الجامدة لطبيعة التفاعل المجتمعي، فهذا الأخير ذو طابع تغيري على مراحل تطورية .

وبهذا لا يلتزم النقد التحليلي الذي تعتمده سوسيولوجيا النص « بخطابات تجريدية يقحمها على جميع النصوص، بل ينطلق من الظاهرة المدرجة في النص، ويستعين بكل النظريات التي تسعفه في تحديد انتمائها السوسيو لساني، لأن طبيعة النص الأدبي .. التخيلية تجعله لا يخضع بصورة آلية وتلقائية لبيئته الاجتماعية » (11) .

يتضح من هذا، أن **بيار زيما Pierre V.Zima** في تأكيده على ضرورة الانطلاق من السوسيو- لغة نصية يجعل من النص الأدبي حمولة دلالية إيديولوجية ذات علائق جدلية، « ومن خلال هذه العلاقات يمكن اعتبار العالم الاجتماعي كجاع لغات اجتماعية مستوعبة ومحولة بواسطة النص الأدبي. وإذا كانت إمكانية وصف النص وسياقه الاجتماعي ضرورية امبريقيا، فإنه على الصعيد المنهجي لا يمكن أن يتأتى ذلك إلا من خلال تجليها اللساني » (12) .

ومن ثم، اعتبار البنية النصية إنتاجية حوارية تتفاعل خلالها اللغة الاجتماعية مع اللغة الأدبية التخييلية يتخذ سمة التغير والاختلاف، فلا اللغة الاجتماعية هي واحدة موحدة على مستوى جميع المجتمعات ولا تركيبها بنية لغوية نصية يتخذ شكلا وقالبا قارا على اختلاف النصوص الأدبية.

بالتالي، كل هذه الحركية إن كان على مستوى لا ثبات النص أو لا ثبات المجتمع يساهم في بنا القارئ من زوايا متعددة، حتى يتسنى له بعد ذلك المشاركة في التغيير الإيجابي، حيث نجده يصقل وعيه بذاته أو بنصه أو بمحيطه عبر تجاوز القراءة الروتينية العقيمة التي لا تثير تساؤلاته ولا تحفز تأويلاته .

فحتى يتم التأثر والتأثير الحي والفاعل، يجب توجيه القراءة بعيدا عن القولبة الجامدة والمعنى الواحد، فالمعنى عند سوسيولوجيا النص « غير مستقر ولا يمكن أن يكون تاما»(13)، وهذا يشجع على ثراء معارف وخلفيات القارئ التي تلعب دورا كبيرا على فهمه وتذوقه ومن ثم يحدث الأثر عبر تفعيل الاتصال الإيجابي مع النص، وهكذا، تؤثر ذاكرة القارئ في النص، مثل ما يؤثر النص في فهم كل قارئ ومحيطه الخارجي .

لذلك تجنح سوسيولوجيا النص إلى توظيف وسائط فاعلية بين إنتاج النص وتلقيه ولعل أكثرها جدلية، هي دينامية التأويل العلائقي بين عالم النص وعالم المجتمع. ومن خلال الوجود النصي اللاثابت، يتسع البحث السوسيو- نصي وهذا يفسر اختلاف النتائج التحليلية لجمالية النص ودلالته السياسية والاجتماعية ... في كل مرحلة تاريخية جديدة، وهو ما يمكننا من « أن نكتب تاريخ الأجيال فقط من خلال تاريخ قراءاتنا للنصوص الأدبية الكبيرة، ويتكون التاريخ السوسيو ثقافي الذي يشكل ويقولب قراءاتنا من بعدين اثنين: بعد معاصر نشهده ونعيشه ونساهم في بنائه وبعد آخر موروث عن الماضي»(14).

فالدارس السوسيو- نصي، يعتكف على رصد العلائق المتولدة بين النص والواقع والقارئ منذ استحضار ذهن المبدع الكاتب، القارئ الذي سيتوجه له بالكتابة ثم ما اتخذته الإستراتجية الكتابية من عناصر تنشيطية لفعل التلقي وبعدها التحقق الفعلي الإبداعي للنص في ذهن القارئ وخروجه تكوينا تأويليا يقتضي الاستمرار والتعدد الخلاق.

وعليه تجمع سوسيولوجيا النص، حيثيات الكتابة (النص) مع آليات القراءة (التلقي) ضمن مفهوم التناص الاجتماعي، أي تغدو « كعملية امتصاص من جانب النص الأدبي للغات الجماعية والخطابات الشفهية أو المكتوبة، التخييلية، النظرية، السياسية أو الدينية»(15)، على اعتبار كل من الإنتاجية النصية والفعالية القرائية تنطلق من المجتمع لتعود إليه.

2- حضور تحليل رشيد بن مالك السوسيو- قرائي في تشكيل فهم القارئ :

وكمثال على تلاقح فاعل بين التحليل السوسيو- قرائي ونص الرواية الجزائرية نورد مقطعا للناقد الجزائري **رشيد بن مالك**، يقول فيه: « لم يسم الراوي مضمون هذه الأوجاع ويبقى القارئ في حيرة من أمره؛ هل هي أمراض أم تجارب أخرى فاشلة سابقة لتجربتها مع منير، ويكتفي بذكر هذا الاسم الجامع لكل الأمراض والتجارب المؤلمة التي أصابت إلهام، ويقابل تذكر هذه الأتراح تعتمد نسيان كل الأفراح » (16) .

نلاحظ هنا، كيف أن آلية **رشيد بن مالك** النقدية السوسيو- سيميائية التي اتخذها لمحاورة المدلول الاجتماعي المسكوت عنه في النص الروائي قيد دراسته، تمتطي التأويل لتقدم للأدبي والجمالي مساحة أكبر وللدلالة أكثر من وجه، جاعلا بذلك البنية النصية جملة من الدلالات يشترك فيها العالم التخييلي للرواية والعالم الحقيقي للمجتمع، هذا المجتمع الذي يتجلى أيضا من خلال هذا التحليل النقدي لـ **رشيد بن مالك**،عبر "القارئ"، إذ يمثل المستوى الاجتماعي الذي يشهد تحقق النص الروائي إن كان فهما أو تأويلا.

وارتباط تحليل **رشيد بن مالك** بالقارئ الفاعل مكنه من تجاوز القولبة التحليلية الجاهزة، فالاختلاف والتغير كائن على مستوى كل نص وكل مجتمع وكل قارئ ، فلكل نص تركيبة دلالية وتقنية تستدعي كيفية تحليلية، كما أن لكل مجتمع تنظيما حياتيا محكوما بالتطور ولكل

قارئ فهما اكتسبه عبر خصوصية النص وعلاقته بالمجتمع ورصيده المعرفي.

وعليه، تكون القراءة اللا منمذجة مسبقا والقائمة على التأويل والتعدد الدلالي أفيد إن كان للنص أولفهم القارئ وكذلك لتطور المجتمع :

« من حق القارئ أن يتساءل إذا كان هذا التعمد في النسيان يعد شكلا من أشكال الوعي بصعوبة اللحظة الحاضرة وما يتخللها من أحزان تصرفها عن النظر إلى الحياة حلوها ومرها في آن واحد، وأن الإنسان في وجوده يتألم حينا ويسعد حينا آخر ويكون نتيجة ذلك التخفيف من حدة المعاناة، أم أنه قيد يسيجها في إطار ترضخ لقيمه الباعثة على الانقباض» (17) .

نرى في هذا المقطع التحليلي، كيف أن **رشيد بن مالك** يقدم موقفه للقارئ في قالب يستثير مشاركته الفاعلة فهو ليس حكما نهائيا إنما مشاركة حوارية بينه وبين قارئه، أي مجتمعه، فالقارئ يشكل وعي هذا المجتمع الذي تفرض طبيعته التطور- تغيرية تجاوز الجاهز والقار من التحليلات القرائية .

بالتالي، عبر التحليل السوسيو- قرائي يكون النص الروائي حاضر في بناء وعي القارئ/الذات/المجتمع بالقدر الذي تكون فيه القراءت الفاعلة حاضرة في كامل النص الروائي، فالقارئ يشكل وعي هذا المجتمع الذي تفرض طبيعته التطور- تغيرية تجاوز الجاهز والقار من التحليلات القرائية ومن ثم تجاوز العقيم من قدرات الفهم والخلفيات المعرفية والثقافية.

الهوامش والمراجع والمصادر:

1- **بوشوشة بن جمعة**، "التجريب وسؤال الحداثة في الرواية العربية الجزائرية". الملتقى الخامس، الجزائر: مديرية الثقافة أعمال وبحوث عبد الحميد بن هدوقة برج بوعريج، 2002، ص: 219.

2- **محمد مصايف**، الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام. الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص:8.

3- المرجع نفسه، ص: 8.

4- **بوشوشة بن جمعة**، الرواية العربية الجزائرية(أسئلة الكتابة والصيرورة). تونس: دار سحر للنشر، 1998، 83- 40.

5- المرجع نفسه، ص: 22.

6- **واسيني الأعرج**، "مأزق الرواية العربية"(أسئلة النشأة، أسئلة المثاقفة). مجلة المساءلة، الجزائر، ربيع- صيف 1993، ص: 68.

7- **إيناس عياط**، "الرواية وبيداغوجية القراءة". الملتقى الخامس، الجزائر: مديرية الثقافة أعمال وبحوث عبد الحميد بن هدوقة برج بوعريج، 2002، ص: 117.

8- **محمد خرماش**، "النظرية الاجتماعية في دراسة الأدب"، (مفاهيم وإجراءات). الملتقى الثاني، الجزائر: منشورات المركز الجامعي النقد السوسيولوجي (الخطاب النقدي الأدبي المعاصر) خنشلة،2007، ص: 72 ـ 73.

9- المرجع نفسه، ص: 72.

10- **عمر عيلان**، "الأدبي والاجتماعي"(قراءة في حقيقة العلاقة وسيرورتها). الملتقى الثاني، الجزائر: منشورات المركز الجامعي النقد السوسيولوجي (الخطاب النقدي الأدبي المعاصر) خنشلة ،2007، ص: 39

11- **سعيد يقطين**، انفتاح النص الروائي(النص والسياق). ط2؛ لبنان-المغرب: المركز الثقافي العربي،2001، ص: 26

12- **حسن حنفي**، "قراءة النص". مجلة البلاغة المقارنة، العدد 8، ربيع 1988، ص.7
13- **بيار زيما**، النقد الاجتماعي(نحو علم اجتماع للنص الأدبي). تر: عايدة لطفي، ط1؛ القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1991، ص: .314
14- **عبد الكريم شرفي**، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة(دراسة تحليلية نقدية في النظريات الحديثة الغربية). ط1؛ لبنان ـ الجزائر: الدار العربية للعلوم، ناشرون ـ منشورات الاختلاف، 2007، ص: .252
15- **بيار زيما**، النقد الاجتماعي، ص: .204
16- **رشيد بن مالك**، "تحليل سوسيو سيميائي لرواية الصحن (للكاتبة سميحة خريص)" الملتقى الثاني، الجزائر: منشورات المركز الجامعي النقد السوسيولوجي (الخطاب النقدي الأدبي المعاصر) خنشلة ،2007، ص: .512
17- المرجع نفسه، ص: 512.